فكاهات

رواية

العدل [1]

روي انهُ كان في بلاد الانكليز في اواخر القرن الماضي رجلٌ من النبلآء يقال لهُ السير يوسف براندون وكان واسع الثروة كثير العقار معروفاً بالنبل والفضل والاحسان فعاش عمراً طويلاً انفق جلهُ في اعمال الخير وتوفي عن ولدين يقال لهما يوسف ووليم فاوصى للاول بكل مالهِ وترك للثاني مبلغاً لا يزيد عن خمسة آلاف ليرة فان الشريعة الانكليزية كانت تقضي بانتقال معظم الارث من الاب الى اكبر اولادهِ الذي يُعتبر عندهم ممثّل كرامة الاسرة وحافظ شهرتها ومجدها وكانوا يوصون لبقية الاولاد بمبالغ طفيفة تساعدهم مع ما احرزوهُ من العلم على نيل اسباب المعيشة المعتدلة

وبعد ان توفي الوالد لبث يوسف اكبر الولدين مقيماً في بلدتهِ واتخذ على نفسهِ تدبير العقارات والمقتنيات الكثيرة التي خلفها لهُ والدهُ وكان قد تزوج في صباهُ بفتاة كريمة الاصل بديعة الجمال بالغة حد التهذيب واللطف والرقة فرُزق منها ابنة ثم توفيت على اثر النفاس فخلّفت لهُ حزناً عظيماً فلبث بعدها منقطعاً بنفسهِ معتزلاً معاشرة الناس الاّ في وقت الضرورة

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشلاني

وصرف همهُ الى العناية بابنتهِ وسماها لوسيا باسم امها فكانت سلوتهُ الوحيدة

اما وليم فأخذ ما اصابهُ من ثروة والدهِ وسافر الى قريةٍ بعيدة وكان قد درس علم الحقوق حتى برع فيهِ فشرع يتعاطى صناعة المحاماة وقد صمم ان لا يفتر عن السعي والاقدام حتى يفوز بمقامٍ عالٍ لانهُ كان مولعاً بالعظمة والسؤدد فمرّت بهِ بضع سنين وهو يجدّ ويكدّ ويقارع الايام وينازل الحوادث فلم يرفعهُ اجتهادهُ في سلم الارتقآء الا درجاتٍ قليلة

وفي ذات يوم دُعي وليم الى مأدبة في منزل احد وجهآء البلدة التي اتخذها مقاماً فابصر هناك ابنةً لرب البيت اسمها جوليا وكانت على جانب عظيم من الجمال واللطف والرقة فمال قلبهُ اليها ولم يكن يعرف الحب قبلاً فما عتم ان صار ذلك الميل شغلاً شاغلاً واشتد الوجد في فؤادهِ حتى أنساهُ الغاية التي كان يسعى ورآءها. واخيراً عزم ان يقترن بالفتاة ويذهب بها الى قرية معتزلة فيسكنان فيها منقطعين عن الناس واقفين حياتهما للحبّ الخالص

ولما قرر وليم عزمهُ على الزواج طلب الفتاة من ابيها فأجابهُ وكانت جوليا قد اصابها من حبهِ ما اصابهُ من حبها فاقترن بها وفرّغ فؤادهُ من كل عاطفة الاّ الحبّ فعاش مع عروسهِ سنةً كانت اسعد من ايام حياتهِ ورُزق منها غلاماً

الاّ ان عواطف حبّ الجاه والرفعة لم تخمد في صدر وليم بل كانت كامنةً بازآء عاطفة الحبّ لغلبتها عليها فلم يمضِ عليهِ ثمانية عشر شهراً من زواجهِ حتى عادت اليهِ آمالهُ القديمة بقوة عظيمة ولا سيما لانهُ كان يودّ ان يترك لولدهِ اسماً عظيماً وإرثاً كبيراً فعاد الى حالتهِ الاولى من

السعي والدأب واعداً نفسهُ بالفوز ونيل الاماني

واتفق ذات يوم ان وليم كان جالساً امام نافذة غرفتهِ فرأى كوكبة من الفرسان مارّةً على الطريق امام منزلهِ وهم يتحادثون ويضحكون وفيما هم كذلك اذا بجواد احدهم قد كبا فسقط براكبهِ على الارض وللحال ترجل الباقون عن جيادهم واسرعوا الى الساقط لينهضوهُ وكانوا ينادونهُ « يا سيدي اللُرد » فوجدوا ان عظم ركبتهِ قد انكسر فلم يستطع ان يتحرك لشدة آلامهِ . فلما سمع وليم لفظة لُرد اسرع فنزل الى الطريق ولما رأى اللرد على تلك الحال عرض عليهِ ان يحملهُ الى منزلهِ واذ لم يكن في تلك القرية الصغيرة مأوًى يليق برجل نبيل كاللرد لم يسعهُ الا الاجابة فنقلهُ وليم الى غرفتهِ والقاهُ على سريرهِ واستدعى في الحال احد مشاهير الجراحين من بلدةٍ مجاورة فجآء وفحص الكسر فظهر لهُ ان الامر خطير وشرع للحال في معالجة اللرد وقضى عليهِ بالبقآء في المنزل ثلاثة اشهرٍ ومنعهُ من الحركة واكّد لهُ ان الانتقال من هناك يزيد الحال خطراً وربما يفضي الى قطع الساق

وكان هذا اللرد من اعاظم نبلآء الانكليز المقرّبين من ملكهم وكان اسمهُ اللرد ڤرغراف ولم تكن سنهُ في وقت الحادثة تزيد على الثلاثين فلبث في بيت وليم وسرّ مما لقي من الحفاوة والاكرام . وكانت زوجة وليم تدخل اليهِ حين يذهب رجلها لقضآء اشغالهِ فتسليهِ باحاديثها وتقرأ لهُ بعض الاخبار المضحكة لكي تهوّن عليهِ صعوبة الأسر في فراشهِ

اما اللُرد فآنس في تلك السيدة رقةً ولطفاً وادباً وجمالاً فمال قلبهُ اليها واحبّها كثيراً ولما اوشكت الثلاثة الاشهر ان تنقضي اغتمّ جدًّا وودّ لو يبقى

زمناً اطول في منزل وليم لكي يتمتع بمغازلة جوليا وحدثتهُ نفسهُ ان يستميلها اليهِ لكنهُ وجد من عفافها وطهارة نفسها ما حال دون مرامهِ وان كانت المرأة لم تنجُ من وهدة الغرام التي أُلقي فيها

وفي اثناء هذه المدة كاشف وليم اللرد بما في نفسهِ من حب الشهرة والابهة وسألهُ المساعدة في ادخالهِ في سلك القضاة فوعدهُ اللرد بالاجابة وشرع وليم يبني قصوراً شاهقة من الآمال المقبلة

ولما تمّ شفاء اللرد أراد الخروج من منزل مضيفهِ وكانت ظواهرهُ تدل على حبهِ الشديد لربّة المنزل ولم يخفَ ذلك عن عين وليم النقادة فاغتاظ جدًّا وأحرقتهُ نار الغيرة ولكنهُ كظم الغيظ وشيّع اللرد الى العربة متلطفاً معهُ في الكلام ومذكّراً اياهُ بوعدهِ

وبعد ذهاب اللرد بأيام كان وليم نائماً في فراشهِ بجانب زوجتهِ وبينهما ولدهما ادورد فسمع زوجتهُ تتمتم فانتبه وأصغى الى ما كانت تقول في نومها فسمعها تذكر اسم اللرد ثرغراف وللحال ثار غيظهُ حتى أصابهُ نوعٌ من الجنون وظن انها قد خانتهُ فلم يستطع صبراً وخطر لهُ ان يقتلها على فراشها ولكنهُ عدل عن ذلك ونهض لساعتهِ فلبس ثيابهُ وأخذ كتبهُ وأوراقهُ ونقودهُ وحمل طفلهُ وخرج من البيت فاكترى عربة وسافر الى بلدةٍ اخرى

وفي الصباح نهضت جوليا من نومها مرعوبة لانها لم تجد زوجها ولا ولدها وانما وجدت رقعة على مخدّتها فقرأت فيها ما يأتي

« لقد اطلعتُ على خيانتكِ ونمّت شفتاكِ بسرّكِ الاثيم فسأنتقم

منكِ بأن آخذ ولدكِ وأخفيهُ عنكِ وسأجعل حياتكِ حملاً عليكِ لانكِ لن تري فلذة كبدكِ بعدالآن واياكِ ان تحاولي اتباعي فاني لن أقبلكِ في بيتي وكفى ان أقول لكِ انكِ خائنة وهذا عقابي لك وليم »

ولا نستطيع وصف ما خامر فؤاد جوليا بعد قرآءة هذه الرسالة فانها علمت انها ذهبت ضحية شكوك زوجها ولما وجدت نفسها وحيدةً شعرت ان ناراً تحرق احشآءها وحنت ضلوعها الى طفلها فذهبت تبحث عنهُ فلم تقف لهُ على أثر وبلغ منها الغيظ لاتهام زوجها لها بالخيانة فجالت من مكانٍ الى آخر ومن قرية الى اخرى حتى علمت اخيراً ان زوجها ساكن في بلدةٍ قريبةٍ وانهُ استقدم مربية للاعتنآء بولدهِ. واذ كانت موقنة ان زوجها لا يسمح لهـا بدخول بيتهِ ولا يريهـا وجه طفلها عزمت على ان تسرقهُ فاستدعت اثنين من اللصوص ودفعت اليهما مبلغاً من المال فدخلا ليـلاً بيت وليم وسرقا الطفل وسلّماهُ الى والدتهِ فهربت بهِ الى بلادٍ بعيدةٍ . واذ لم يكن معها من النقود الاَّ مبلغ يسير اكترت غرفة في نزلٍ حقير كان يأوي اليهِ جماعة من السكيرين واللصوص وعاشت هناك مع ولدها عيشة محفوفة بالمكاره والمخاطر

. . . . . .

مرَّت على هذه الحادثة عشرون سنة وأصبح وليم رئيس قضاة بلادهِ ولم يبقَ امامهُ الا درجةٌ واحدة لبلوغ قمة المعالي فوعدهُ اللرد ڤرغراف ان يسعى لهُ لدى الملك في ان يُعيّنهُ مستشار المملكة القضآئي. وراق الزمان لوليم وصار عشير الامرآء والنبلآء ولم يكن يكدر عيشهُ الا فقد ابنهِ الذي

لم ينقطع في كل مدة هذه السنين عن التفتيش عنهُ في كل مكان وكانت رجال الشحنة تجوب البلاد وتسأل عن الطفل وأمهِ فلم تهتدِ اليهما

وحدث بعد ذلك الحين ان اللرد ڤرغراف أبصر لوسيا ابنة اخي وليم وكانت قد نشأت فتاةً لم يكن لجمالها ثانٍ في كل تلك البلاد فهام بها وجدًا ولما علم انها ابنة اخي وليم طلب منهُ ان يسعى في زفها اليهِ واشترط عليهِ انهُ لا يسلّم اليهِ الامر الملكي بتعيينهِ مستشاراً قضائيًّا للملك الا بعد ان يصبح زوجاً للوسيا . فشرع وليم يسعى في اقناع أخيهِ بهذا الزواج حتى أجابهُ اليهِ لكن لوسيا أبت الاذعان لان قلبها كان قد تعلق بحب شاب اسمهُ ادورد وكان مجهول النسب الا انهُ كان حسن الخلقة قويّ البنية كريم النفس شجاعًا حاذقًا وكان ابو لوسيا قد رآهُ مرّتين فسُرَّ منهُ ومال قلبهُ اليهِ فلم يلُم ابنتهُ على هيامها بذلك الفتى الغريب . اما وليم فأبغض الشاب وهو لم يرهُ بعد بغضاً عظيماً لانهُ كان عقبةً في سبيل أمانيّهِ فأخذ يهتمّ في ازالة هذا المانع وكان يعد اللرد خيراً ويؤجل المواعيد من وقتٍ الى آخر ريثما تتمّ تدابيرهُ

وكانت قد نشأت في مدينة لندن في ذلك الزمان عصابةٌ من قطاع الطرق فكانوا يسلبون المارة وينهبون المسافرين حتى انهم سلبوا اللرد ڤرغراف كل جواهرهِ وذخائرهِ الثمينة المتصلة بهِ من أسلافهِ وذلك عند ما كان راجعاً من مصيفهِ الى قصرهِ في العاصمة . وكان لهذه العصابة زعيمٌ يُعرف باسم بولس وكانت الحكومة قد بثت العيون والارصاد في كل مكان للقبض عليهِ وعلى أصحابهِ فلم تفلح

واتفق يوماً ان هؤلآء القطاع سطوا على عربة البريد فسلبوا منها مبلغاً وافراً من القراطيس المالية وفيما هم عائدون اذا بجماعة من الجنود قد أحاطت بهم فوقعت بين الفريقين مناوشة عنيفة انجلت اخيراً عن أسر زعيمهم بولس فيما كان يسعى في خلاص احد رفاقه

فسار الجند بالزعيم الى العاصمة وأودعوهُ السجن ولما كملت اوراق التحقيق دُعي للمحاكمة فثبتت جرائمهُ الكثيرة وأنهُ قتل في سطواته بعض المسافرين فحكم الاعضآء عليهِ بالاعدام ووقف رئيس القضآء الذي هو وليم وهو مرتدٍ الالبسة الرسمية كما هي العادة ليقرأ صورة الحكم واذا بضجةٍ على الباب ورجلٍ يحاول الدخول والحفرآء يمنعونهُ فوقع نظر وليم عليهِ وللحال عرف انهُ احد الرجال الذين أرسلهم للبحث عن ولدهِ فأمرهم بادخالهِ فدخل وسلم وناولهُ رقعةً مكتوباً فيها «احذر مما انت فاعل يامولاي فان بولس الذي تحاكمهُ الآن هو ابنك ادورد »

وما كاد وليم يتمّ قرآءة هذه الكلمات حتى ظهرت عليهِ علامات الاضطراب وصبغ الاصفرار وجههُ وقد وجد نفسهُ بين عاملين شديدين اما الحكم على ولدهِ واما نقض شريعة البلاد . فارتجف وتململ وحاول الكلام مراراً فلم يستطع ورأى الاعضآء والحضور اضطرابهُ فأخذهم العجب من أمرهِ ولم يدروا ما عرض لهُ . وبعد ان استمرّ على ذلك بضع دقائق وهو يحارب نفسهُ فضّل حياة الشريعة على حياة ولدهِ ففتح شفتيهِ وقرأ هكذا

« قد ثبتت يا بولس ذنوبك وظهرت حقيقة جرائمك ظهور الشمس ولم نجد لك عذراً ولا مجالاً للعفو فحكمت عليك المحكمة بالاعدام وفي

صباح غدٍ تُساق الى المشنقة فليرحمك الله »

ثم سقط وليم على كرسيهِ لان رجليهِ عجزتا عن حملهِ . وللحال فُضَّت الجلسة وخرج وليم الى غرفةٍ اخرى ليبدّل ثيابهُ فوردتهُ رسالة برقية من اللرد ڤرغراف يقول فيها انهُ مع عدد وافر من النبلاء ينتظرون قدومهُ ليبشّروهُ ويهنئوهُ بصدور الارادة الملكية بتعيينهِ مستشاراً قضائياً للملك . فركب عربةً مقفلةً وسار نحو بيت اللرد وكان اللرد جالساً امام النافذة ينتظر مجيء وليم واذا بالعربة قد وقفت امام الباب فنزل مسرعاً لاستقبال صديقهِ فلم يخرج احدٌ منها فتقدم وفتح الباب واذا بوليم ملقًى ميتاً وفي يدهِ ورقةٌ مجعدةٌ قد أطبق كفهُ عليها فأخذها وقرأها واذا هي ورقة الشرطي القائلة ان بولس هو ابن وليم المفقود

فلما وقف اللرد ڤرغراف على هذا السرّ ورأى ما كان من عمل وليم هزّتهُ الاريحية وكرم العنصر فأراد ان يكافئهُ في مماتهِ بما لم يستطع ان ينيلهُ اياهُ في حياتهِ فأسرع للحال الى حضرة الملك واستمدّ العفو عن بولس الذي هو ادورد بن وليم واتخذهُ بمنزلة ابن لهُ ثم لما تحقق حبّ كلٍّ من ادورد ولوسيا للآخر تنازل عن طلب لوسيا لنفسهِ واحتفل بزفافها الى ادورد وعاش ادورد بعد ذلك في ثروة أبيه محفوفاً برعاية اللرد وارشادهِ ولم يبطئ حتى محا عن نفسهِ وسم ما اشتهر بهِ من السيئات وسلك في طريقة أُسرتهِ الى آخر ايامهِ